التمييز العنصري في فكر جبران خليل جبران (انساق الإقصاء والتهميش)

أ.د حسن دخيل عباس الطائي م.م. حمزة عبيس عبد السادة الجنابي

كلية التربية للعلوم الإنسانية/ جامعة بابل

Racial Discrimination in the Thought of Jubran Kalil Jubran (Elimination and Marginalization)

Prof. Dr. Hasan Dakeel Abbas Al-Ta'i

Asst. Lecturer Hamza Ubais Abdel Sada Al-Janabi

College of Education for Human Sciences / University of Babylon

Abstract

This research deals with racial discrimination in the literary products of Jubran Kalil Jubran. It includes the meaning of racial discrimination and its roots in the ancient Arabic heritage specially that which was applied to the Negros; then the research deals with the racial discrimination applied by the Othmans upon the Arabs; then the suffering of the Arabs from racial discrimination when they migrated to North America and faced contempt due to their race and ethnicity.

الملخص

يتناول هذا البحث موضوع التمييز العنصري في منجز جبران الأدبي , وقد تضمن البحث التعريف بماهية التمييز العنصري , وجذوره في تراثنا العربي القديم ولاسيما التمييز الذي تعرض له الزنوج , ثم بعد ذلك سلط البحث الضوء على التمييز العنصري الذي لاقاه العرب من الاستعمار العثماني , وتناول البحث فضلا عن ذلك التمييز العنصري الذي لاقاه العرب المهاجرون إلى أميركا الشمالية وتمثل ذلك بازدرائهم واحتقارهم وفقا للعنصر والقومية.

كان لا بد لنا قبل ان ندرس التمييز العنصري في منجز جبران ان نعرّفه وما نجم عن ذلك من انساق ثقافية تقصي الآخر وتهمشه، ولا بد لنا من تسليط الضوء على الجذور التاريخية لنشوء هذا الضرب من التمييز بين البشر واسباب ظهورها.

إنّ التمييز العنصري يعني "اقصاء الآخر، وفرض الهيمنة عليه واغلب الثقافات تمارس ذلك بواسطة العنف، وهو امّا أنْ يكون عنفاً مادياً خشناً باستخدام قوة السلاح واليد، واما ان يكون عنفاً ناعماً وملطفاً ايديولوجياً كما يسميه (السوسير) او رمزياً كما يسميه (بيير بورديو)..."[1]. لذا فإنّ النظرة الدونية إلى الآخر "هي نظرة حكمت موقف الغزاة الأسبان من الهنود الأمريكيين، وموقف الغرب الاستشراقي والاستعماري من الشرق، وموقف اليابان الاستعمارية من كوريا، وكذلك حكمت موقف الثقافة العربية الإسلامية من الآخرين، والأسود ضمن هؤلاء الآخرين"[2].

وقد أدانت الجمعية العامة للامم المتحدة التمييز العنصري بين البشر بسبب العرق او الاصل، او اللون حيث يشكل هذا التمييز عقبه تعترض العلاقات الودية والسلمية بين الامم، وواقعاً من شأنه تعكير السلم والامن بين الشعوب، والاخلال بالوئام بين الاشخاص الذين يعيشون جنباً الى جنب حتى في داخل الدولة الواحدة، فالحواجز العنصرية امر منافٍ للمثل العليا لاي مجتمع انساني، لذا ينبغي القضاء السريع على التمييز العنصري في جميع انحاء العالم بكافة اشكاله ومظاهره، وضرورة تأمين فهم كرامة الشخص الانساني واحترامها[3].

كان التمييز العنصري في تاريخنا العربي القديم سائداً قبل الاسلام بين العرب وغيرهم من الاقوام غير العربية ولا سيما الزنوج (السود) " ويتمثل هذا (...) في تشبيه هؤلاء السودان بالبهائم والسباع، واستعارة اوصاف البهائم السارحة،

(1) تمثيلات الآخر، صورة السود في المتخيل العربي الوسيط. د نادر كاظم مؤلف من البحرين، وزارة الاعلام، الثقافة والتراث الوطني، مملكة البحرين، ط1، 2004: 33

(2) م.ن: 437.

(3) ظ: الاتفاقية الدولية للقضاء على جميع اشكال التمييز العنصري، حقوق الإنسان، مجموعة صكوك دولية، المجلد الأول، الأمم المتحدة، نيويورك، 1993، بحث منشور على شبكة الانترنت.

والوحوش النافرة لهم (...) إنّ السودان في المتخيل العربي كائنات تمتلك طاقة جنسية هائلة، وبهم ميل طبيعي الى الفسوق والانحلال، وهم كائنات عارية وخطرة ومرعبة (...) وموصوفون بالحمق في كل مكان (...) لا يكاد يخلو مؤلف عربي (...) من الاشارة الى التشابه الحاصل بين السودان والبهائم، والى هذه الجبلة الحيوانية الراسخة في السودان والزنوج..."[1].

وقد تجلّى ذلك في اقوال عدد غير قليل من العرب القدماء. يقول الجاحظ (ت 255هـ): " انّما الامم المذكورون من جميع الناس أربع: العرب، وفارس، والهند، والروم، والباقون همج واشباه همج، يقصد الزنج واشباه الزنج"[2]. والجاحظ لا يختلف عن ابي حيان التوحيدي الذي يقول: "وأمّا الزنج والسودان فغلبت عليهم الفسولة (الرذانة، والنذالة، وانعدام المروءة والجلد) وشاكلت البهائم الضعيفة، كما شاكلت الترك السباع القوية"[3]. ومن صور التمييز العنصري الاخرى ضد الزنوج تتضح عند (طاوس اليماني) صاحب عبد الله بن عباس حيث كان "لا يأكل ذبيحة الزنجي، ويقول: انه عبد مشوّه الخلقة"[4]. ويأخذ التمييز العنصري عند العرب ابعاداً خطيرة بحيث يرى الزنجي لا يستحق ان يشارك العربي في اعماله لانه لم يكن مؤهلاً لذلك و"لما كان يوم فتح مكة امر الرسول (ص) بلالاً حتى علا ظهر الكعبة فأذّن، فقال عتاب ابن أسيد: الحمد لله الذي قبض ابي حتى لم ير هذا اليوم. وقال الحارث بن هشام: أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذناً"[5].

وهذه النظرة الدونية التي لحقت بالمسلمين السود بعد وفاة الرسول (ص) جعلتهم يفضلون " حياة العزلة وعدم الاختلاط، فبلال اراد ان يخرج إلى الشام بعد وفاة الرسول (ص)، وآثر العزلة حتى مات عام (20هـ) وقيل ان ابا بكرة مولى الحارث بن كلدة الثقفي نزل البصرة ولم يسمع عنه شيء حتى مات، وذهب وحشي بن حرب الى حمص في آخر حياته، وظل بها حتى مات"[6].

في القرن الثالث الهجري عرفـت الثقافة العربية السود بأنهم "لا يختلفون عن القرود الا باستقامة القامة، بل ان البعض رأى ان القرود اكثر تـقبلاً للتعلم والتدريب من الزنوج"[7].

نفهم من خلال ما تم ذكره ان الأسود في المتخيل العربي كان ينظر اليه نظرة دونية قائمة على التمييز العنصري فهو " آخر بالنسبة للثقافة العربية، وهو آخر كانت الثقافة تنأى بنفسها عنه"[8].

وفي بداية العصر الحديث يصف رفاعة الطهطاوي السود بقوله "هم دائماً كالبهائم السارحة لا يعرفون الحلال من الحرام، ولا يقرأون ولا يكتبون ولا يعرفون شيئاً من الامور المسهلة للمعاش ولا للمعاد"[9]. ويذكر الطهطاوي لون اهل باريس وهو "البياض المشرب بالحمرة، وقلّ وجوه السمرة في اهلها المتأصلين بها، وانما ذلك لانهم لا يزوجون عادة الزنجية للأبيض او بالعكس محافظة على عدم الاختلاط باللون، بل لا يعدون انه قد يكون للزنج مجالاً اصلاً بل لون السواد عندهم من صفات القبح (...) على انه لا يحسن عند الفرنساوية استخدام جارية سوداء في الطبخ ونحوه لما ركز في اذهانهم ان السودان عارون عن النظافة اللازمة"[10].

واني ارى ان النسق الثقافي القائم على التمييز العنصري والسائد في المتخيل العربي والاوربي يتجنى كثيراً على السودان مجرد ان لونهم اسود فبمقدار هذا نجد أنّ قسماً منهم قد ارتقوا الى قمم المجد لما جادت به عقولهم من اعمال خدمت الانسانية في شتى مجالات الحياة.

(1) تمثيلات الآخر صورة السود في المتخيل العربي الوسيط: 177.
(2) البيان والتبيين، الجاحظ، ج1، تح: علي ابو ملحم، دار الهلال، ط1، بيروت، 1992: 130.
(3) الامتاع والمؤانسة، ج1، ابو حيان التوحيدي، تح: احمد امين واحمد الزين، المكتبة العصرية، بيروت، د.ت: 212.
(4) نقد المنقول محمد بن ابي بكر الزرعي، ج1، تح: حسن السمعاني سويدان دار القادري، ط1، بيروت، 1990: 83.
(5) تمثيلات الآخر: 85 نقلاً عن مجمع البيان في تفسير القرآن، ج9، تح: مجموعة من العلماء، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، ط1، 1995: 225 – 226.
(6) تمثيلات الآخر: 88، نقلاً عن السود والحضارة العربية، عبدة بدوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة، 1876: 100.
(7) العرب والبرابرة، المسلمون والحضارات الاخرى، عزيز العظمة، رياض الريس، للكتب والنشر لندن، قبرص، ط1، 1991: 182.
(8) تمثيلات الآخر: 167.
(9) تلخيص الابريز في تلخيص باريز، رفاعة الطهطاوي، دار ابن زيدون، ط1، بيروت، د.ت: 12.
(10) م.ن: 13.

وبالرغم من انتشار مبادئ الثورة الفرنسية التي تدعو الى الحرية والاخاء والمساواة فانها لم تؤدِ إلى تخفيف التفرقة العنصرية او الاسترقاق فقد برز التوسع الاستعماري، وكان بمثابة "انفجار براكين من كراهية البعض للعناصر الملونة في مختلف انحاء العالم، وما تبع ذلك من حروب همجية فقتل جرائها مئات الالوف من الابرياء في الصين وغيرها من مناطق العالم"[1].

ويرى ادورد سعيد أنّ سياسة الاستعمار الأمريكي قائمة على اذلال الشعوب، فالاستعمار ينظر إلى ثقافات الشعوب نظرة دونية، اما هو فيمتاز بالتعالي والفوقية التي هي اعلى ثقافة ورقياً من الشعوب الاخرى[2]. "فقد بني كل من الاستشراق والاستعمار على اساس التمركز العرقي والثقافي والحضاري لاوربا، فالمركزية العرقية ذات الصفة الاجتماعية تبرر السيطرة، وهذه بدورها تعود لتغذي العرقية، كل العالم غير الاوربي وجد نفسه دون أهمية ومجرداً من قيمته التاريخية"[3]. فهناك تمايز وجودي ومعرفي، وهناك فوقية غربية تقابلها دونية شرقية.

ويرى ادورد سعيد أنّ الاستشراق مذهب سياسي فرض على الشرق لان الشرق اضعف من الغرب، ويرى أنّ السلاح الوحيد لمقاومة هذه السياسة المتعالية هو الثقافة، لانها الوسيلة الوحيدة لمواجهة محاولات الطمس، والاقصاء، والتهميش، فالثقافة الاستعمارية هي ثقافة تقمع الآخر الشرقي بنزعتها الشوفينية، والعنصرية، والطائفية، فالغرب المستعمِر ينظر إلى الشرق المستعمَر بانه نموذج عظيم، وثقافته متفوقة وهذا شكل من اشكال أمركنة العالم، وشكل جديد من اشكال الاستعمار والسيطرة والهيمنة.[4]

لقد كافح ادوارد سعيد من اجل هوية الشعوب، واستنكر القمع والاضطهاد وندد بالاستعمار، والخطاب الكولونيالي، وحاول اسقاط كل الممارسات العنصرية والشوفينية التي تمارسها الامبريالية، واراد ان تكون كل شعوب العالم متسامحة مهما تعددت الوانها وجنسياتها[5].

فالغرب فرض هيمنة العولمة بمختلف آلياتها، وعمل على اعلاء سلطتها القائمة على ثنائية التابع: المتبوع. وهذه الهيمنة تجاوزت الأطر والكليات الجغرافية والسياسية، الى فضاء منفتح على العالم[6].

وقبل ادورد سعيد بعشرات السنين ندد جبران بهذا النسق الثقافي القديم القائم على التمييز العنصري، والسائد في الثقافة الاستعمارية الغربية. يقول جبران لصديقه يوسف الحويك: "انا يا يوسف عازم على أنْ اهز الامريكان وانفخ في اوساطهم بوقي..."[7]. في هذا النص جملة ثقافية كما عبّر عنها الغذامي هي "المتولدة عن الفعل النسقي في المضمر الدلالي للوظيفة النسقية في اللغة"[8]. وهذه الجملة تشير الى نسق ثقافي مضمر يتعلق بالتمييز العنصري بين الغرب والشرق فالغربيون ينظرون الى الشرقيين بأنهم اقوام اقل ثقافة وامكانيات من الغرب فهم ينظرون إلى الشرقيين نظرة استصغار، وبعضهم يذهب ابعد من ذلك في احتقاره الآخر غير الغربي، ويعمل على تهميشه واقصائه من خلال عدم الاعتراف بامكانياته وما يقدمه من ابداعات في ميدان عمله، إذْ يرون في الشرقيين اناساً يتصفون بالسطحية، والسذاجة، وليس لديهم القدرة على الابتكار، او اضافة اشياء مهمة في ميدان البحث العلمي والادبي[9].

(1) التفرقة العنصرية، د. احمد سويلم العمري، القاهرة، 1964: 37.
(2) ظ. ادورد سعيد، الهجنة، السرد، القضاء الامبراطوري، تأليف مجموعة من الأكاديميين العرب، تحرير واشراف د. اسماعيل مهنانة، ابن النديم للنشر والتوزيع، دار الرواد الثقافية، ط1، الجزائر 2003: 90.
(3) اوربا والاسلام، صدام الثقافة والحداثة، هشام جعيط، دار الطليعة، ط2، بيروت، 2001: 17
(4) ظ. الثقافة والامبريالية، ادورد سعيد، تر: كمال ابو ديب، دار الاداب، بيروت، عالم المعرفة، 1993: 32- 33
(5) ظ. الهجنة، السرد، الفضاء الامبراطوري: م. سابق: 174.
(6) ظ. ملامح الاستشراق والحوار الحضاري، د. فاضل عبود التميمي، مجلة الاقلام مجلة فصلية فكرية ثقافية عامة، العدد /3 السنة 48، كانون الأول، 2013: 72.
(7) ذكرياتي مع جبران، يوسف الحويك، مؤسسة نوفل، ط2، بيروت، لبنان، 1979:24.
(8) النقد الثقافي قراءة في الانساق الثقافية العربية، عبد الله الغذامي، المركز الثقافي العربي، ط1، المملكة المغربية، الدار البيضاء، لبنان، بيروت، 2000: 73-74.
(9) ظ. مجلة الاقلام.م.سابق: 70-71.

والغرب " يظن أنْ العرب قوم يركبون الجمال، ارهابيون، انوفهم معقوقة (...) مرتشون، وأنْ ثروتهم التي لا يستحقونها اهانة للحضارة الحقيقية (...) إنَ الغربي الابيض الذي ينتمي الى الطبقة الوسطى يعتقد انه يتمتع بمزية انسانية تمنحه الحق لا في ادارة العالم غير الابيض فحسب بل ايضاً في امتلاكه لمجرد كون ذلك العالم – تعريفاً – لا ينتمي للانسانية تمام الانتماء"[1]. وهذه النظرة العنصرية الموجودة عند الغرب قديمة وموجودة في زمن جبران وقبله فهو حينما يقول ليوسف الحويك: "انا يا يوسف عازم على ان اهز الأمريكان..."[2]. فهو يريد في هذا النص ان يفرض وجوده على الغربيين، ويثبت لهم نظرتهم الخاطئة اتجاه الآخر غير الغربي، وهذا النص يضمر نسقاً مضمراً يتجلى من خلاله التمييز العنصري، رؤية الغربيين الى الشرقيين القائمة على العنصرية.

وما يعزز ما ذهبنا اليه من هيمنة نسق التمييز العنصري على المجتمعات الغربية والأمريكية " يعود جبران (...) الى الكلام عن عائلته، والطريف انه يتابع حمل ماري على الاعتقاد بكرامة اصله، وثراء والده، واختلاف سنية الباكره عما نعرفه بالواقع، وهو مما يؤسف له. فبين جبران وماري توثقت القرابة ووحدة الحال من اكثر من باب، وبرغم ذلك، فأما انه لم يثق بها لدرجة تغريه باطلاعها على حقيقة اصله، او ولعله الارجح لم يكن له من الشجاعة الشخصية ما يمكنه من التسليم بواقعه العائلي كما هو لا كما رغب في ان يكون"[3]. وهذا النص يضمر نسقاً مضمراً يتضح من خلاله التمييز العنصري والرد على التمييز العنصري واضح في هذا النص من خلال دفاع جبران عن نفسه وعن عائلته امام ماري هاسكل بكون اصله كريم، وعائلته ثرية، وكأنه يريد أنْ يقول لها إنّ ما يدور في ذهنك، وذهن اقرانك من الغربيين أنهم ينظرون إلى أهل الشرق بوصفهم كسالى خاملين غير مبدعين وغير منتجين، يعيشون حياة الكفاف والهامشية، فهذا لا ينطبق على اسرة جبران بوصفها كريمة وثرية وكأن جبران يريد في هذه العبارة ان يصحح نظرة ماري هاسكل تجاهه وتجاه عائلته والاّ تعمم هذه النظرة على جميع الشرقيين.

إنّ ماري هاسكل واقعة تحت تأثير النسق الثقافي الغربي القائم على العنصرية والتمييز فهي تنظر إلى الشرقيين أنهم دون ثقافة الغربي ووعيه، فالغربي هو المتفوق، فهي تنسب الفرادة إلى الغرب وتحاول تمجيدها وهذا ما اثار حفيظة جبران.

ويمكننا أنْ نلمس نظرة الغرب العنصرية إلى الآخر الشرقي في قول ماري هاسكل: "... أدرك أني آذيتك وشوّهتك في الصميم: في صحتك، وفي نتاجك، وفي علاقتك بالآخرين في ينبوع الحياة، في الصميم ذاته (...) ان روحي عاملتك كأنك دوني، بل انها لم تنهض تكريماً واحتراماً لك، لقد أثمت تجاهك اثماً طويلاً مستمراً يا خليل"[4]. نلحظ في هذا النص نسقاً مضمراً خضعت له ماري هاسكل، وكان سبباً في رفضها الزواج من جبران، وذلك بفضل الثقافة العنصرية التي كانت مهيمنة في المجتمع الاوربي، فالغرب يرى انه مجتمع راق، وهو المهيمن، والمسيطر، والمتنفذ في مسار الاخر وحياته ومصيره، وينظر الغربي إلى الآخر العربي على أنّه دوني، وأقل ثقافة من الغربيين، لذا فقد كانت نظرة الغربيين للعرب نظرة احتقار وازدراء، وهذا ما دفع ماري هاسكل ان تمتنع عن الزواج من جبران، وهي تعيش حالة صراع مع نفسها فمن جهة أنها تحب جبران وتقدّر مواهبه، وما يمتلكه من ذكاء وامكانيات تجعله لا يختلف عن الغربيين، ومن جهة اخرى يهيمن عليها النسق الثقافي الغربي الذي عمل على تكوين شخصيتها ورؤيتها للآخر العربي الذي يفتقر الى الثقافة، ويتسم بالجهل والتخلف حسب رأيها لذا قالت له: اني آذيتك وهذه الكلمة تحمل في طياتها اشارات تشير إلى الشفقة عليه لانه لا يستحق ان يحشر مع تلك النظرة التي ينظر الغربيون بها إلى قومه لكنها لم تستطع أنْ تحرر نفسها من هذه النظرة العنصرية، لأنها واقعة تحت تأثير ثقافة النسق الغربي الذي يجعل المرأة الغربية لا تميل للاقتران بالشرقي خشية انتقاد مجتمعها لها.

(1) الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق، ادورد سعيد، تر: د. محمد عناتي، رؤية للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 2006: 192.
(2) ذكرياتي مع جبران، م. سابق: 24.
(3) نبي الحبيب، ج2، رسائل الحب بين جبران وماري هاسكل، فرجينيا حلو، راجعها يوسف حوراني، دار الجريدة الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 1974: 92.
(4) نبي الحبيب: ج2، فرجينيا حلو: 109، وينظر اضواء جديدة على جبران، توفيق صائغ، الدار الشرقية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان: 96.

فماري هاسكل "من جهتها تراجعت اذ خافت على سمعتها داخل المجتمع (...) وبالتالي تخرج من حياة جبران تاركة وراءها صداقة عمر وتعاون فني. هناك تتزوج من قائد في الجيش الامريكي وتبدأ حياة جديدة"[1]. وهذا يدل على أثر التمييز العنصري على ماري هاسكل.

ويقول جبران من رسالة وجهها الى ماري هاسكل: "ان اليهودي ملك في نيويورك، والشارع الخامس هو قصره، وبوسع التاريخ اعادة نفسه تكراراً الا ان هناك شيئاً أزلياً هو اليهودي: ابتدأ العالم يوم مولده، والعالم هو له ليربحه، فيخسره، فيربحه من جديد. أجل يا ماري، ان ثمة شيئاً ذا ديمومة خاصاً بهذا الجنس الغربي الذي يثير اعجابنا أحياناً لكننا لا نستطيع ان نحبه"[2]. يشير جبران الى ظاهرة لفتت نظره في نيويورك وهي تعاظم نفوذ اليهود في هذه المدينة على الرغم مما كان عليه حالهم بوصفهم فئة غير محبوبة في المجتمع الاوربي لانهم يحتكرون رأس المال لا نفسهم، ويحققون ارباحاً كبيرة ويكون ذلك على حساب بقية ابناء الشعب من غير اليهود، اذ يضمن لهم هذا التفوق تميزاً من نوع آخر يسمح لهم بالتحكم بمستقبل الآخرين من خلال تحكمهم بعصب الحياة الاقتصادية وهذا ما يعطي اليهود تفوقاً على كل الاقوام من غير اليهود، ويجعلهم يتعاملون مع العالم وفق سياسة التمييز العنصري. بأنْ يكون العنصر اليهودي هو الأرقى والأعلى، ويتعامل مع الآخرين بفوقية وغطرسة، راجعين إلى أحلامهم القديمة التي تصفهم بأنهم (شعب الله المختار). وأن مثل هذا النمط من التعالي أدى إلى اندلاع حروب مدمرة دفع اليهود ثمناً باهضاً وهناك نسق مضمر كوّن رؤية جبران وغيره من المسيحيين يرجع إلى نسق قديم إلى ما فعله اليهود اتجاه نبيهم ومحاربته حيث أن الديانة المسيحية جاءت بعد اليهودية وحدث صراع بين الديانتين، وهذا الصراع ظل مستقراً في الاذهان عبر الاجيال المتعاقبة، ومنه استمد جبران وغيره من المسيحيين رؤيته إلى اليهود، فضلاً عن تميزهم وتفوقهم على الارض من خلال تحكمهم برأس المال العالمي.

وفي رسالة جبران إلى ماري هاسكل في 22 تشرين الثاني 1922 منددا بالتمييز العنصري الذي تمارسه الامبراطورية العثمانية تجاه بلده سوريا وبلدان الشرق "اطلب الى الله ان تؤول الحرب العالمية الى تفكيك الامبراطورية العثمانية فيتسنى لسوريا الأم أن تفتح عينيها الحزينتين، وتحدق مرة أخرى إلى الشمس (...) قلبي يشتعل من اجل سوريا، لقد قسا عليها القدر، واكثر من القسوة ماتت اهلها، وهجرها بنوها طلباً للقمة العيش في الاراضي البعيدة..."[3].

في هذا النص الذي يطلب جبران من الله تفكيك الدولة العثمانية التي كانت في ظاهرها امبراطورية اسلامية تحكم باسم الدين، وتعد نفسها استمراراً للخلافة الاسلامية، وهي في الوقت نفسه كانت تخوض صراعاً مع الغرب على مناطق النفوذ اذ عملت الكثير من الدول الاوربية على التحرر من سيطرتها كبلغاريا، ورومانيا، وصربيا وحاولت الانعتاق من سيطرتها[4] بسبب سياستها القائمة على التميز العنصري بين المسلم وغير المسلم من المسيحيين واليهود والاوربيين، كل هذه الاسباب دفعت جبران الى تفككها من اجل ان تحصل سوريا على حريتها، وفي ذلك يبدو واضحاً ان هناك نسقاً مضمراً كشف عنه جبران وهو رغبته بانتصار دول الغرب على الدولة العثمانية. هذا استيقظ في داخله النسق الغربي المتعالي الذي كون رؤيته للحياة فانتصر له، بعدما حاول ان يخفي نسق التميز العنصري ويغلفه ببعض الافكار الجميلة وهي تحرير شعوب الشرق المسكينة والمسحوقة وايضاً قوله "قلبي يشتعل من اجل سوريا لقد قسا عليها الدهر، وماتت اهلها، وهجرها بنوها طلباً للقمة العيش"[5] وهنا جملة ثقافية تشير إلى الحرب بين المسيحيين والمسلمين أبان حكم العثمانيين، وكذلك التمييز العنصري الذي مارسته الدولة العثمانية اتجاه اللبنانيين المسيحيين الذين كانت تربطهم علاقات وثيقة مع الدول الاوربية وهي التي كانت تحركهم ضد العثمانيين، وجبران في هذا النص يقصد اللبنانيين المسيحيين دون غيرهم فهم الذين قتلوا في هذه الحروب وهم الذين بسبب ذلك هاجروا إلى العالم الجديد. يحركه نسق مضمر جعله ينتصر

(1) اشعار جبران خليل جبران، دراسة واعداد: اسلام ابراهيم، فاروس للنشر والتوزيع، القاهرة، 2012: 8- 9.
(2) نبي الحبيب، رسائل الحب بين ماري هاسكل وجبران، ج1: 54.
(3) نبي الحبيب، ج1: 119.
(4) ينظر: (حملة البلقان) الحرب العالمية الأولى، المراجعة التاريخية الانكليزية، المجلد 94، رقم 370، بحث منشور على شبكة الانترنت.
(5) نبي الحبيب، ج1: 119.

في داخله للدول الأوربية التي تقاتل العثمانيين في الحرب العالمية الاولى وهذا ما تحقق لجبران فقد فككت الدولة العثمانية واصبحت سوريا ولبنان دولة واحدة بعدما كانت جزءاً من الدولة العثمانية على أمل أنْ تحرر سوريا وتكون جزءاً من الثقافة الغربية وتتحرر من الثقافة الشرقية التي لا تنسجم مع ما تربى عليه اللبنانيون المسيحيون.

وتظهر سياسة التمييز العنصري القائمة على الانتقاص من الآخر والعمل على تهميشه واقصائه من الحياة الفاعلة في المجتمع من خلال ما قاله جبران في النص الآتي: "لماذا يأتي كلنا الى امريكا؟ وأكثر الأمريكيين يزعمون أننا نحن الشرقيين باعة موز وبرتقال. على ان للكثيرين منا أفكاراً ورغائب من مهاجرتنا أسمى من تلك الفنون الأمريكية"[1]. في النص أعلاه جملة ثقافية تحمل نسقاً مضمراً في التمييز العنصري تشير الى الاستهانة بقدرات الشرقيين حيث تكون امكانياتهم محدودة لذلك فإنْ الشرقي في نظرهم لا يجد من الاعمال الا الاعمال الهامشية المتمثلة ببيع الموز والبرتقال، بينما الغربي يسهم في انتاج المعرفة العلمية، وترجع اليه الانجازات العلمية الكبيرة التي تطوّر المجتمع الانساني بفضلها، وهذا مظهر آخر من مظاهر التمييز العنصري فجبران هنا يرد عليهم بأن ما ابدعه من فن قد يناظر ما ابدعه الأمريكيون في الفن المعماري.

ويرد جبران في مقالة له بعنوان (إلى الشباب الأمريكي المتحدر من اصل سوري) على سياسة الغرب العنصرية:

"انا أؤمن بكم وأؤمن في مصيركم.

أؤمن بأنكم مساهمون بهذه الحضارة الجديدة.

أؤمن بأنكم ورثتم عن آبائكم حلماً قديماً، وأغنية، ونبوءة تستطيعون وصفها بفخر كهدية عرفان بالجميل في حضن أمريكا. أومن بأنكم تستطيعون القول لمؤسسي هذه الأمة العظيمة ها أنا ذا شاب شجرة فتية قلعت جذورها من تلال لبنان، ولكنني عميقة الجذور هنا وسأكون مثمرة " [2]. العنوان فيه علامة سيمائية تشير إلى التمييز العنصري، ويدل على ذلك ما قاله في المقالة حيث أنّ جبران يشيد بالشباب السوري في أمريكا بوصفهم مساهمين في بناء حضارة الغرب بجدارة، وهنا جملة ثقافية فيها نسق مضمر يشير إلى التمييز العنصري. اذ هنالك من الغربيين من لا يؤمن بقدرات الشرقيين، ومنهم السوريون. وهنا جبران يدحض ما جاءت به سياسة التمييز العنصري والمتمثلة بالتشكيك بقدرات الشرقي في المساهمة في بناء الحضارة الغربية في أمريكا وهذا يعني الانتقاص من السوريين بوصفهم ينسبون إلى أمم جاهلة، وأنّ عملهم في أمريكا ينحصر في الاعمال الهامشية ولا يساهمون في بناء الحضارة الغربية، وجعلوا مثل هذه الاعمال حكراً على الغربيين، وفي ذلك تمييز عنصري واضح، فأراد جبران أنْ يرد على أولئك الذين يشككون بقدرات السوري (ها انا ذا شاب شجرة فتية قلعت جذورها من تلال لبنان ولكني عميقة الجذور هنا وسأكون مثمرة) أي ان السوريين واللبنانيين يساهمون في صنع الحضارة الغربية ويكونون فاعلين لا يختلفون عن الغربيين في ذلك.

ويشير جبران إلى نوع آخر من التمييز العنصري عندما يشيد بعظمة أمم الغرب والعرب ولكنه ينتقص من الأتراك فيقول " فالروسي العظيم طموحه أنْ يكون قديساً، وطموح الألماني القديم أنْ يكون فاتحاً، والفرنسي العظيم أنْ يكون فاتحاً، والفرنسي العظيم أنْ يكون فناناً، والانكليزي العظيم أنْ يكون شاعراً كبيراً، والشرقي العظيم أنْ يكون نبياً، وان الأتراك هم اقل شعوب الأرض خلقاً وإبداعاً"[3]. يمجد جبران في مقالته السابقة الأمم التي ذكرها، وينتقص من الأتراك، ولعل هذا ناجم عن موقفه منهم، وما فعلوه من تمييز عنصري بحق العرب الذين انضووا تحت حكمهم، وفي ذلك إشارة إلى أنّ الأتراك عملوا على انهاك الشعوب التي احتلوها، وعملوا على عزلها، وتخلفها، وعكسوا تخلفهم بوصفهم لا يمتلكون سوى القوة الغاشمة التي من خلالها يفتكون بالشعوب ويقهرونهم بالقوة، ومن الجانب الآخر فإنّ الأتراك لا يمتلكون حضارة، وقد انعكس ذلك على الشعوب التي وقعت تحت سيطرتهم، فقد عاشت في ظل تخلفهم وظلمهم سنين عجاف، وهذا ما أراد جبران أنْ يشير إليه ويندد من خلاله بالاستعمار العثماني، ومناهضته بوصفه استعماراً متخلفاً عكس تخلفه على الشعوب التي حكمها، وان

(1) عقيدة جبران، جان دايه، دار سوراقيا للنشر، ط1، المملكة المتحدة، 1988: 235.
(2) عقيدة جبران: 373.
(3) اضواء جديدة على جبران: 194 – 195.

ذلك يحمل نسقاً مضمراً يظهر جبران أنه بجانب الثقافة الغربية، ويشعر أنّه جزء من ثقافة الغرب، والدليل على ذلك أنّ جبران مجّد الأمم التي يتوافق مع حضارتها، ويشعر أنّه جزء منها وهي الأمم الأوربية، لكنه انتقص من الأتراك الذين يمثلون النسق الثقافي القديم الذي ثار عليه جبران، أما رؤيته للشرق الذي هو رمز للعرب حيث كثيراً ما كان يطلق على العرب وجبران نشأ في هذه البيئة وأحب روحانياتها المتمثلة بالنبوة، أما الأتراك فقد جردهم من كل شيء يحمد لهم.

لقد عاش جبران في أمريكا، وكان التمييز العنصري موجوداً، وأخذ ابعاداً مختلفة، فكان هناك التمييز العنصري بين المهاجرين من أصول أوربية والمهاجرين من القارات الأخرى، فالأوربيون كانوا هم المتنفذون في الأمريكيتين، وكانوا يعاملون الآخرين معاملة قائمة على التمييز العنصري، منطلقين من بعض المفاهيم العنصرية التي تؤكد انه من يكون من أصول أوربية اكثر رقياً وتطوراً ومعرفة من الأمم الأخرى لذلك انيط لهم الدور القيادي في المجتمع الأمريكي بينما أعطي المهاجرون من غير الأوربيين الاعمال الهامشية واحتكر الأوربيون لأنفسهم الاعمال المهمة التي تجعلهم يتحكمون في مصير المهاجرين وفي الجانب الآخر بخسوا حقوقهم في العمل إذ كانت اجورهم متدنية، ومساكنهم لا تتوفر فيها ابسط المستلزمات الحياتية.

ويكشف جبران عن ثقل وطأة التمييز العنصري على نفسه في امريكا وما نجم عنها من مرارة قاسية في نفسه ونفس ميخائيل نعيمة فيخاطب جبران ميخائيل نعيمة بقوله: "ميشا. ميشا أنجاني الله وإياك من المدنية والمتمدنين، ومن امريكا والامركيين. ونحن سننجو بإذن الله، وسنعود إلى قمم لبنان الطاهرة، وأوديته الهادئة"[1]. ويقول: "لا بد يا ميشا، لابد لي ولك من الرحيل عن هذه البلاد، فالويل لمن كان مجهولاً فيها، لانه ليس اثمن خرقة، والويل لمن نال فيها ولو بعض الشهرة، لانه يصبح مثل الممسحة. أنا اليوم ممسحة ياميشا، ونفسي تطالبني بعزتها، وفكري يطالبني بحريته، وجسمي يطالبني بحريته، ولن استعيد عزة نفسي، وحرية فكري، وراحة جسمي الا في لبنان"[2]. يعبّر جبران في هذين النصين على التمييز العنصري بشكل صريح ومؤلم في امريكا لذلك يتمنى أنْ يرجع هو وميخائيل نعيمة إلى لبنان كي يحسا بالألفة والمحبة في وسط شعبي ينسجمان معه بثقافته، وبكل شيء، بينما في المجتمع الأمريكي يعاني جبران من انه يشعر بالغربة والتمييز لذلك لا يحس انه منسجم مع المجتمع الامريكي الذي يشعره بالتمييز العنصري وهذا ما يؤلمه، ويزيد من غربته في المجتمع الامريكي.

ويذكر الدكتور غسان خالد "وسيلاحظ جبران انه موجود في كل مكان ما كان يجري في وطنه من ظلم وتعد، وتسلط القوي على الضعيف، والغلوفي افقار الفقراء واغناء الاغنياء كان يجري ايضاً في امريكا بلد الثروات الصناعية، والزنوج المضطهدين وقصة (كوخ العم توم) التي قرأها وهو بعد في بوسطن لا تزال حية في خياله يذكيها أواراً وجع الضمير الانساني من الدول الكبرى أبان الحرب الكونية الاولى وما جر اليه هذا الجشع من ويلات على الانسانية وبخاصة الشعوب الضعيفة، لذلك لم يجد جبران صعوبة من الانتقال من الجزئي الى الكلي من لبنان الى العالم، أي من تعميم ثورة أعلنها على أناس معينين فيجعلها ثورة على كل الناس"[3].

فالعدل في الأرض يبكي الجنُّ لو سمعوا به ويستضحك الأموات لو نظروا[4]

يشير جبران إلى التمييز العنصري الذي كان سائداً في أمريكا بين البيض والسود، وبين جشع الدول الكبرى أبان الحرب العالمية الأولى وخاصة الشعوب الضعيفة، فجبران يهزأ من الإنسانية الذبيحة على يد الدول الكبرى، ويندد بالتمييز العنصري الذي رآه في أمريكا، ويسخر من العدل في الأرض الذي يشرعه الإنسان حيث العدل مفقود، حيث يتسلط الأقوياء

(1) جبران خليل جبران، حياته موته، أدبه، فنه، ميخائيل نعيمة، مؤسسة نوفل، ط7، بيروت، لبنان، 1974: 207
(2) اضواء جديدة على جبران: 141.
(3) جبران الفيلسوف شخصية العبقري في منافذ خلاصها النقد الاجتماعي والبنية الفردوسية جدلية الانسان والالوهة، د. غسان خالد، مؤسسة نوفل، ط2، بيروت، لبنان، 1983: 168.
(4) موسوعة جبران خليل جبران العربية (المواكب)، شرح د. درويش الجويلي، الدار النموذجية للطباعة والنشر، صيدا، بيروت، لبنان، 2012: 332.

على الضعفاء والأغنياء على الفقراء، ويفرضون إرادتهم باسم العدالة والشريعة، بمعنى أنّ جبران يسعى إلى "رفض العالم التحكمي، والحضارة القمعية الحديثة التي تمخضت عن العقل الاداتي، ومن ثم رفض الهمجية (...) التي لم تخل منها صفحة من صفحات الحضارة الحديثة"[1]. وجبران يؤمن بالإنسانية الشاملة فهو يقول: "أحب مسقط رأسي ببعض محبتي لبلادي، وأحب بلادي بقسم من محبتي لارض وطني، واحب الارض بكليتي لانها مرتع الانسانية، وروح الالوهية على الارض"[2]. جبران يحب الناس سواء في وطنه، او خارج وطنه فعلى الرغم من خضوعه لأنساق التمييز العنصري بحكم نشأته في لبنان وثقافته الأوربية وعيشه في الولايات المتحدة جعل منه جزءاً من الثقافة الأوربية وخاضعاً لأنساقها ولكنه في الكثير من كتاباته يعلن عن أفكار متجاوزة للتمييز العنصري، وتتسم بالإنسانية لكن حقيقة الأمر أنّ مثل هذه الأنساق في التمييز العنصري ظلت مترسبة في ذهن جبران، وتستيقظ في نفسه بحسب الاحداث التي تمر به، وتعمل على ايقاظها دون أنْ يكون واعياً لها.

ومن الأسباب التي جعلت جبران يندد بالتمييز العنصري هو تأثره بافكار صديقه الشاعر الهندي طاغور حيث كان طاغور "... يدعو إلى التحرر من العنصرية والقومية، وإلى الايمان بالانسانية الشاملة الواحدة وطناً للانسان"[3].

ويأخذ التمييز العنصري في منجز جبران منحى آخر فيكون داخلياً بين ابناء الشعب الواحد. فمن رسالة لجبران يحدث فيها ماري هاسكل: "... لسنا كباقي السوريين، اننا لا نشبههم شكلاً ومشاعرنا ومشاعرهم تتضارب ان فينا دماء فرنسية، وانكليزية، واوربية اخرى منذ زمن الصليبيين ونحن جميعاً مسيحيون"[4]. نلحظ من هذا النص تمييزاً عنصرياً، وهنا يصبح جبران في حالة غير التي ذكرناها سابقاً في دفاعه عن العرب، ومناهضته للنسق الغربي، فهو يرى نفسه جزءاً من المجتمع الأوربي، وقد جرت في عروقه الدماء الغربية، وأصبح مقتنعاً بكل ما جاء به النسق الغربي في نظرته المتعالية التي تنظر الى الشرقيين نظرة متدنية. فجبران يميز نفسه والمسيحيين في لبنان بوصفهم جزءاً من الأوربيين ويختلفون عن بقية السوريين غير المسيحيين، بل هم من بقايا الصليبيين الذين غزوا بلاد الشام في القرون الوسطى.

فجبران هنا متأثر بالنسق الثقافي الغربي المتعالي على الامم الاخرى وهذا نابع من خلال ثقافته الغربية التي تلقاها في الارساليات التبشيرية والمدارس المسيحية فكانت مدارس تستقي منهجها من المناهج الغربية، اضافة الى انه عاش في الغرب فضلاً عن ان المجتمع اللبناني المسيحي تربطه وشائج قوية بالفرنسيين، ولا سيما الكاثوليك منهم، واما الارثدوكس فلهم العلاقات ذاتها مع روسيا مما جعلهم يشعرون أنهم جزء من هذه الشعوب الأوربية.

وعمل جبران على التنديد بسياسة التمييز العنصري التي مارسها الاتراك تجاه العرب والتي أدّت في ازدراء العرب ونقمتهم على العثمانيين فهو يحدّث ماري هاسكل ويقولها لها: "وأشد ما أكره في الكريب طعم المرارة الذي يملأ فمي، فاني أشعر وكأني ابتلعت تركياً حتى منتصف بلعومي"[5].

حاول الاتراك من خلال سياسة التتريك إلى محاولتهم محو هوية العرب القومية، فعمل جبران على إيضاح هذا التمييز العنصري الذي كان يخفيه العثمانيون تحت غلاف الإسلام وحمايته بوصفهم يحمون الإسلام. وان سلطانهم هو ظل الله في الأرض يحكم باسم الشريعة الإسلامية، وفقاً لما يريده الله فهو ظله في الأرض، ولكن في الحقيقة تجانب ما يقوله الاتراك، وهم يقسون على البلدان الإسلامية المنضوية تحت لوائهم.

اذاً هدف العثمانيين ليس حماية الدين، وإنما السيطرة على البلدان العربية والتحكم برقاب العرب، فنبّه جبران إلى هذه الحقائق وكشف وجههم الحقيقي القائم على التمييز العنصري، الذي يجعل العثماني أعلى مرتبة من العربي المسلم. ويكون جبران في ذلك قد كشف عن النسق المضمر الذي يخفيه العثمانيون وهو استعمار البلاد العربية تحت شعارات براقة

(1) جماليات الحداثة، ادورنو ومدرسة فرانكفورت، عبد العال معزوز، تقديم، محمد سبيلا منتدى المعارف، ط1، بيروت، لبنان: 2011: 15
(2) موسوعة جبران خليل جبران العربية (صوت الشاعر: 318).
(3) جبران الفيلسوف شخصية العبقري في منافذ خلاصها النقد الاجتماعي والبنية الفردوسية جدلية الانسان والالوهة: 278.
(4) اضواء جديدة على جبران: 141.
(5) نبي الحبيب، ج1، م. سابق: 57.

هي حماية الدين الإسلامي، وان حكمهم استمرار لحكم الخلافة الاسلامية مما يجعل ابناء البلاد العربية يخدعون بهذه الشعارات الجميلة في الظاهر، ولكنها تحمل في طياتها الاطماع الاستعمارية التي تبني مجداً عثمانياً على حساب العرب. وهذا ضرب من ضروب حيل الثقافة التي تسهّل مرور مثل هذه الأنساق الثقافية وتجعلها مقبولة لدى الشعوب[1].

لقد حث جبران اللبنانيين والسوريين للتحرر من السيطرة العثمانية، وتبنى افكاراً قومية عابرة حدود الوطن اللبناني، فقد دعا العرب إلى الاتحاد القومي بوجه العثمانيين بعدما عرّى النسق الثقافي الذي يعتمده العثمانيون في حكم البلاد العربية والذي يقوم على الرابطة الدينية، فقد بين جبران زيف هذه الادعاءات كونها تضمر سياسة استعمارية بغيضة. ويبدو ان مثل هذا الوعي الوطني والقومي أصبح حينذاك ناضجاً في ذهن المثقف العربي وتمثّل ذلك في الثورة العربية الكبرى. وهي ثورة قام بها الشريف حسين حاكم مكة ضد الدولة العثمانية في يونيو عام 1916 بدعم من بريطانيا خلال الحرب العالمية الأولى حيث تمكن أفراد القبائل الذين انضموا إلى الثورة من تفجير خط سكة قطارات الحجاز بمساعدة ضابط المخابرات البريطاني (لورنس) ومنعوا وصول الدعم العثماني إلى الحجاز، ثم طردوا الجيش العثماني من مكة والمدينة، والطائف، وجدة، وينبع، والعقبة، ومعان، ودمشق، وأخيراً حلب في عام 1919[2].

إنّ جبران كان متأثراً بالأفكار القومية التي كانت سائدة آنذاك في الغرب وأراد من خلالها تحطيم النسق الثقافي الذي اعتمده العثمانيون في حكم البلاد العربية والذي يقوم على الرابطة الدينية، وقد لقيت هذه الافكار ترحيباً لدى العراقيين وتجلى ذلك في قول الشاعر جعفر الحلي مناهضاً العثمانين ومؤيداً لثورة شريف مكة وهو يثور ضد الاتراك العثمانيين مباركاً له ثورته فيقول له من قصيدته:

أنشر لواءك مؤيداً منصورا حيّا الاله لواءك المنشورا
واقصد بخيلك يمنةً او يسرةً الله جارك لا ترى محذورا
يا ابن النبي محمد وسميه طابت حجورك أولاً وأخيرا[3]

يشيد الشاعر جعفر الحلي بثورة أهل الحجاز بقيادة الشريف محمد بن عبد الله بن محمد بن عون على المستعمرين الاتراك، وطردهم وعودة الحكم العربي الاسلامي وما كان يقول ذلك الا بدافع التمييز العنصري، والتهميش، والاقصاء، الذي لقيه العرب من المستعمرين الاتراك، والذي اشار اليه جبران في منجزه الادبي.

ويقول الشاعر جعفر الحلي مناهضاً الاستعمار العثماني ومؤيداً لثورة اليمن بقيادة امام اليمن محمد بن يحيى (ت سنة 1322هـ) وقد جاء منها قوله وهي من البحر البسيط:

مرْ وأنه واحكم فأنت اليوم ممتثلُ والأمر أمرك لا ما تأمر الدولُ
عنك الملوك انثنوا عجزاً وما عملوا أأنت زدت علواً أم هم سفلوا
خلاص ذي التاج أنْ يعطيك طاعته لامه – إنْ عصاك – الويل والهبلُ
هذا سبيلُ رسول الله أنت به أعطاكه أولياء الله والرسلُ
الدولةُ اليوم في أبناءِ فاطمة بشرى فقد رجعت أيامُنا الأولُ
محمد اليوم قد أحيا بني حسنٍ كأنهم قط ما ماتوا وما قتلوا

(1) ظ: النقد الثقافي قراءة في الانساق الثقافية العربية: 77.
(2) ظ: الثورة العربية ضد الخلافة العثمانية (قصة الاسلام)، ماجد اللحام، راغب السرجاني، مصطفى الطحان ومحسن محمد صالح، بحث منشور على شبكة الانترنت.
(3) سحر بابل وسجع البلابل، السيد جعفر الحلي، تح: الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء، دار الأضواء للطباعة والنشر، ط1، بيروت، لبنان: 248.

سيوفكم لم تزل يا آل فاطمة منها نجيعُ الطلا المحمرُ ينهملُ[1]

إنّ فرح الشاعر بثورة إمام اليمن محمد بن يحيى التي نجم عنها طرد الاتراك من بلاده دليل على إيمانه بأهداف الثورة، وشرعيتها التي هي جزء من ثورات العرب على الحكم التركي الجائر الظالم. وقد "اتخذ الشعر العراقي صوراً متعددة للتعبير عما يعانيه الناس من قلق، ومن شعوره بالظلم والاضطهاد، فكان بعض هذا الشعر يدعو الناس للهجرة عن مواطن الذل، واستيطان الاراضي التي يأمن فيها من الاضطهاد، وكان بعضه يتغنى بأمجاد العرب، ويعدد مآثرهم راجياً ان يقتدي قومهم بهم، ويقارن حال العراق بماضيه العظيم، بينما كان فريق ثالث يهاجم الفساد المتفشي بين الناس مطالباً بالإصلاح تارة وآونة باستبشاع التردي والانحطاط"[2]. وكل هذه النصوص تؤكد ما ذهبنا اليه من معاناة العرب للتمييز العنصري الذي مورس ضدهم من قبل الاتراك.

وقد كان التعصب التركي واضحاً في سلوك بعض الولاة مع السكان، وتمثّل في فرض الضرائب الباهضة على الأهالي، ويجنونها منهم بعنف وشدة ليرضوا سيدهم السلطان حتى وصل العراق إلى درجة خطيرة من اضطراب الحالة الاقتصادية، وتردي الحياة الاجتماعية، ومثله باقي البلاد العربية[3].

ويعبّر جبران عن الأفكار ذاتها التي تندد بالاستعمار العثماني وسياسته العنصرية التي فشلت في مسعاها في تحقيق أهدافها من صهر البلاد العربية في إطار القومية التركية فقد عبّر عن ذلك فيما ذكره (جان داية) نقلاً عن صحيفة الهدى: "ثم قام جبران خليل جبران، وأخذ يرسم صورة قلمية، صوّر للناس فيها أنّهم عاشوا في جوف الافعوان التركي خمسة قرون، ولم يهضمهم فيجب أنْ يثورا ويرمموا الخرائب التي يقومون بها"[4]. يمكننا أنْ نقول: إنّ ما أراد به جبران بقوله: "إنّهم عاشوا في جوف الافعوان التركي خمسة قرون ولم يهضمهم" فعملية الهضم تمثل جملة ثقافية تشير إلى نسق مضمر هو التمييز العنصري، والهضم هنا بمعنى أنْ يمتزجوا، وينصهروا في إطار الأمة التركية، ويحملوا سماتها، ولغتها وعاداتها، وتقاليدها، وهذا ما لم يحصل وهذا يعني أنّ الأتراك أرادوا أنْ يهضموا الأمة العربية، ويجعلوها تنصهر في إطار الأمة التركية، ولكن هذا التمييز العنصري لم يحقق اهدافه.

ومن التمييز العنصري الداخلي فضلاً عما ذكرناه سابقاً يؤكد جبران في حديث مع ماري هاسكل: "إنّ اللبنانيين يختلفون عن السوريين اختلاف الأمريكيين عن المكسيكيين"[5]. يشير جبران هنا إلى نوع آخر من التمييز العنصري من خلال الثقافة، فاللبنانيون بأغلبيتهم الساحقة من المسيحيين الذين تثقفوا بثقافة الغرب منذ نعومة إظفارهم قد عاشوا في اجواء ثقافية شبيهة بالثقافة السائدة في الغرب، فضلاً عن ان معظمهم درس في مدارس الارساليات التبشيرية التي تعد استمراراً لمدارس الغرب ومناهجها اضافة الى احتكاكهم بالمجتمع الغربي من خلال الدراسة في مدارس الغرب او السفر الى البلدان الغربية، جعل حياتهم ذات طابع غربي، والى جانب هؤلاء هنالك من تثقف بالثقافة العربية الاسلامية، وخاصة العرب المسلمين وهم الاكثرية في سوريا، مما جعل جبران يقع تحت تأثير النسق ذاته الذي عانى منه في اوربا هو النسق الذي يرى في الأوربيين جنساً أرقى من الاجناس الاخرى، وجبران يعتقد في احد نصوصه ان اللبنانيين يرجعون الى اصول غربية فهم اعلى منزلة من الشرقيين.

ويبدو أنّ جبران ينظر إلى السوريين من الدرجة الثانية بمعنى ان هنالك نسقاً مضمراً يشير إلى أنّ جبران جزء من الثقافة الغربية، وهناك نسق مضمر ثان يشير إلى أنّ جبران يميل إلى الديانة المسيحية على حساب الديانات الأخرى، فالمسيحيون لهم مرتبة أعلى في نظر جبران من السوريين الذين تهيمن عليهم الثقافة الإسلامية، وهناك تمييز طائفي هو

(1) الشعر السياسي العراقي في القرن التاسع عشر، ابراهيم الوائلي، مطبعة العاني، بغداد، 1961: 165-166
(2) م.ن: 123.
(3) ظ: الشعر السياسي العراقي في القرن التاسع عشر: 44
(4) عقيدة جبران: 88، وينظر: صحيفة الهدى، 9 آب، 1917.
(5) اضواء جديدة على جبران: 141.

مسيحي والسوريون مسلمون والتمييز الطائفي صنعه الاستعمار "وهو خلل اجتماعي ينبغي التحرر منه، وقد غذّى المستعمر هذه الآفة، حافرين فجوة بين الطوائف للتسلط على الوطن"[1].

نتائج البحث

- أدرك جبران التمييز العنصري الذي مارسه العثمانيون ضد المسيحيين فقد كانوا ينظرون إلى المسحيين نظرة دونية.
- رأى جبران أنّ هدف العثمانيين ليس حماية الدين وإنما السيطرة على حكم البلدان التي احتلوها بالقوة، فكشف وجههم القائم على التمييز العنصري الذي مارسوه تجاه بلده لبنان، وسوريا، وبلدان الشرق.
- انتصر جبران للدول الأوربية التي قاتلت العثمانيين في الحرب العالمية الأولى لكونه مسيحي والدولة العثمانية ناصبت العداء للمسيحيين والمسلمين.
- دحض جبران سياسة التمييز العنصري عند الغرب تجاه الشرق والمتمثلة بالتشكيك بقدرات الشرقي في المساهمة في بناء الحضارة الغربية في أمريكا.
- أشاد جبران بعظمة أمم الغرب والعرب، ولكنه انتقص من الأتراك لكونهم مارسوا التمييز العنصري بحق العرب الذين انضووا تحت حكمهم حيث عملوا على انهاك الشعوب التي احتلوها.
- احتقر جبران سياسة الاستعمار الغربي التي أذلت الشعوب حيث نظر الغرب إلى شعوب الشرق نظرة دونية، فهم نظروا إلى الشرقيين بأنهم أقوام اقل ثقافة، فالغربي فوقي وهو المتفوق والشرقي دوني.
- أدرك جبران التمييز العنصري بابشع صوره عندما عاش في أوربا وهناك عانى من التمييز العنصري بأشكاله المختلفة، فالغربيون ينظرون للعرب وللملونين نظرة احتقار وازدراء.
- عرّى جبران النسق الثقافي الذي اعتمده العثمانيون في حكم البلاد العربية والذي يقوم على الرابطة الدينية فقد بيّن جبران زيف هذا الادعاء كونه يضمر سياسة استعمارية بغيضة.

المصادر والمراجع

1. ادورد سعيد الهجنة، السرد، الفضاء الإمبراطوري، تأليف مجموعة من الأكاديميين العرب، تحرير واشراف د. إسماعيل مهناته، ابن النديم للنشر والتوزيع، دار الرواد الثقافية، ط1، الجزائر، 2003.
2. الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق، ادورد سعيد، تر. محمد عناتي، رؤية للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 2006.
3. أشعار جبران خليل جبران، دراسة واعداد إسلام إبراهيم، فاروس للنشر والتوزيع، القاهرة، 2012.
4. أضواء جديدة على جبران، توفيق صائغ، الدار الشرقية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1966.
5. الامتناع والمؤانسة، ج1، أبو حيان التوحيدي، تح. احمد امين، واحمد، المكتبة العصرية، بيروت، د.ت.
6. أوربا والإسلام، صدام الثقافة والحداثة، هشام جعيط، دار الطليعة، ط2، بيروت، 2001.
7. البيان والتبيين، الجاحظ، ج1، تح. علي أبو ملحم، دار الهلال، ط1، بيروت، 1992.
8. التفرقة العنصرية، د. احمد سويلم العمري، القاهرة، 1964.
9. تلخيص الابريز في تلخيص باريز، رفاعة الطهطاوي، دار ابن خلدون، ط1، بيروت، د.ت.
10. تمثيلات الآخر، صورة السود في المتخيل العربي الوسيط، د. نادر كاظم، مؤلف من البحرين، وزارة الاعلام، الثقافة والتراث القومي، ط1، مملكة البحرين، 2004.
11. الثقافة والامبريالية، ادورد سعيد، تر. كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت، عالم المعرفة، 1993.

(1) جبران الفيلسوف شخصية العبقري في منافذ خلاصها النقد الاجتماعي والبنية الفردوسية جدلية الانسان والالوهة: 139، نقلاً عن مجلة الفنون سنة 1913.

12. جبران خليل جبران حياته، موته، أدبه، فنه، ميخائيل نعيمة، مؤسسة نوفل، ط7، بيروت، لبنان، 1974.
13. جبران الفيلسوف شخصية العبقري في منافذ خلاصها النقد الاجتماعي والبيئة الفردوسية جدلية الأنساق والالوهه، د. غسان خالد، مؤسسة نوفل، ط2، بيروت، لبنان، 1983.
14. ذكرياتي مع جبران، يوسف الحويك، مؤسسة نوفل، ط2، بيروت، لبنان، 1979.
15. سحر بابل وسجع البلابل، السيد جعفر الحلي، تح. محمد الحسين آل كاشف الغطاء، دار الأضواء للطباعة والنشر، ط1، بيروت، لبنان، د.ت.
16. الشعر السياسي العراقي في القرن التاسع عشر، إبراهيم الوائلي، مطبعة العاني، بغداد، 1961.
17. الشعر العراقي، اهدافه وخصائصه في القرن التاسع عشر، د. يوسف عز الدين، دار المعارف، القاهرة، 1977.
18. العرب والبرابرة، المسلمون والحضارات الأخرى، عزيز العظمه، رياض الريس للكتاب والنشر، ط1، لندن، 1991.
19. عقيدة جبران، جان داية، دار سوراقيا للنشر، ط1، المملكة المتحدة، 1988.
20. مجمع البيان في تفسير القرآن، ج9، الطبرسي، تح. مجموعة من العلماء، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، ط1، بيروت، 1995.
21. مجموعة شعر الأخرس، نشره عباس العزاوي المحامي، بغداد، 1949.
22. موسوعة جبران خليل جبران العربية، شرح د. درويش الجويري، الدار النموذجية للطباعة والنشر، صيدا، بيروت، 2012.
23. نبي الحبيب، رسائل الحب بين جبران وماري هاسكل، ج2، فرجينيا حلو، راجعها يوسف حوراني، دار الجريدة الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 1974.
24. النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، عبد الله الغذامي، المركز الثقافي العربي، ط1، المملكة المغربية، الدار البيضاء، لبنان، بيروت، 2000.
25. نقد المنقول، محمد بن أبي بكر الزرعي، ج1، تح. حسن السمعاني سويدان، دار القادري، ط1، بيروت، 1990.

المجلات

1. ملامح الاستشراق والحوار الحضاري، د. فاضل عبود التميمي، مجلة الأقلام، مجلة فصلية فكرية ثقافية عامة، العدد 3، السنة 48، كانون الأول، 2013.

شبكة المعلومات

1. الاتفاقية الدولية للقضاء على جميع اشكال التمييز العنصري، حقوق الإنسان، مجموعة صكوك دولية، المجلد الأول، الأمم المتحدة، نيويورك، 1993.
2. الثورة العربية ضد الخلافة العثمانية (قصة الإسلام)، ماجد اللحام، مصطفى الطحان، راغب السرجاني.
3. حملة البلقان – الحرب العالمية الأولى، المراجعة التاريخية الانجليزية، المجلد 594، رقم 370.